التراث في فكر المجددين

(٣)

الدكتور محمد حسين هيكل

أ. د. حسين نصار(*)

المجدد الذى أتتبع أفكاره اليوم هو الكاتب ، الصحفى، وزير المعارف، رئيس مجلس الشيوخ، رئيس حزب الأحرار الدستوريين، صاحب «ثورة الأدب»: الدكتور محمد حسين هيكل (١٨٨٨ - ١٩٥٦م). الرجل الذى يجمع المفكرون على أنه أحد رواد التجديد فى الأدب، ودعاة الحرية فى التفكير.

قال عنه صديقه فى الحياة والفكر والأدب د. طه حسين: «لو لم يكن إلا هذا، لكان من الحق على التاريخ الأدبى... أن يكتب «هيكلا»، بين الذين مهدوا طريق الحرية للأجيال المقبلة، وطريق حرية الرأى، وحرية التفكير، وحرية التعبير أيضًا، وكل من ظن أو قدَّر غير ذلك فهو لا يظلم «هيكلا»، وإنما يظلم نفسه لا أكثر ولا أقل... كان كاتبا حرا بأوسع معانى هذه الكلمة، وكان أديبا حرا بأوسع معانى حرية الأدب» (فرج ١٦-٧).

وقال سامى الكيالى: «كان - رحمه الله - من أعلام رجالات الفكر فى مصر. وكان فى طليعة الذين قادوا حركة التجديد. وظل طوال حياته - يدافع عن المبادئ السامية والنزعات الحرة، بجرأة وإخلاص» (فرج ٨١).

وقال عباس محمود العقاد: «لا شك أن «هيكلا» المؤرخ وكاتب السير جدير بأن يسلك فى عداد نوابغ مصر والأمة العربية، بل جدير بأن يسلك فى عداد الكتاب العالميين إن جاز أن يكون مصريا فحسب فى غير هذه الجهود» (فرج ٢٢).

وقال أ. د. جابر عصفور فى تعليل احتفال المجلس الأعلى للثقافة بالذكرى الأربعين لرحيل هيكل: «الواقع أننا نحتفى بهيكل فى هذه السنوات تعميما، وفى هذا العام تخصيصا، لأننا نحتفل بجهود الاستنارة المصرية التى أسهمت فى تأسيس وعينا الثقافى الحديث، وأنتجت معنى الدولة المدنية العصرية فى أذهاننا، وأرست قيم الحرية والتسامح والتعددية والمغايرة فى ممارستنا السياسية والاجتماعية، وعندما نتحدث عن جهود الاستنارة المصرية، فإننا نتحدث عن تراث ممتد أسهم فى صنعه

---

* المشرف على لجان التحقيق بمركز تحقيق التراث بدار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة.

مشايخ الاستنارة وأفنديتها على السواء، تراث يصنع الإنجاز الإبداعى والفكرى لمحمد حسين هيكل فى موقع من مواقع الصدارة، وذلك بوصفه رائدا من رواد التنوير الذين أسهموا فى تطوير مجالات متعددة من مجالات المعرفة والإبداع، وقاموا بأدوار متنوعة فى آفاق الحياة الثقافية المصرية التى ظلت متطلعة إلى الأمام... والمؤكد أن إيمان هيكل بحرية الفكر هو ما دفعه إلى إبراز عنصر التجدد فيما كتبه فى كل مجال أسهم بالكتابة فيه. فالتجديد عنده علامة الأمة التى تجاوز جمودها، والعقل الذى يجاوز قصوره، والحضارة التى تتفتح على غيرها، والثقافة التى تؤسس لمستقبلها، والجامعة التى ترفد الحضارة والثقافة فى الأمة بالعقول التى تصنع نهضتها» (فرج أ، د)

هذا المفكر الذى أقر له المفكرون بالتجديد ، عاب أدب الإحيائيين شعرا ونثرا ووصفه بالحظيرة الضيقة، حظيرة الدواوين. (ثورة ٧).

وكرر عيب الصور التى يرسمونها، واللغة التى يعبرون بها عن أفكارهم. قال: أما الذين يقفون عند الاطلاع على الأدب العربى (وحده) فلن يستطيعوا مجاراة هذا العصر مجاراة تمكنهم من القيام بالرسالة الكبرى الملقاة على عاتق الأديب، وسيظل أدبهم أدب ألفاظ لا تحمل فى طياتها سنا المعانى السامية، ولا ضياء الحق، وبهجة الجمال. وسيظلون أطفالا فى الأدب. ربما يعجب بعض الناس زخرف قولهم، ولكن هذا الزخرف لن يعدو جماله أن يكون كجمال الدمية، لا حياة فيها وإن أتقن صانعها رسم تقاطيعها» (ثورة ٣٣).

وأعلن أن تربيتنا وتهذيبنا يجيئان بصور الحياة، مصبوبة فى قوالب قررتها الجماعة من عصور سالفة، فيطبعانها فى حِسِّنا وفكرنا طبعا يقيدهما بهذه القوالب، ويكرههما على الخضوع لها، والإيمان بها (ثورة ٥٨).

وكرر ذلك فذكر أن شعراءنا وكتابنا وذوى الفن منا لا يتصلون بالحياة إلا عن طريق غيرهم: ينظرون بعينه، ويسمعون بأذنه، ويحسون بحسه وينسون أنهم هم القيثارة التي تنقل إلى آذان البشر أنغام الجمال، ماثلة فى مختلف مظاهر الطبيعة. ويقصرون همهم على محاكاة أنغام سبقهم غيرهم إليها، وبزَّهم فيها، وقضى على كل أمل فى أن تكون لهم شخصية قائمة بذاتها حين يَشْدُون هم بها ويحاولون تجديدها (ثورة ١١٥-٦).

وعلى الرغم من إعجابه ببعض الشعر الإحيائى ، وإشادته إلى قصائد منه للبارودى وإسماعيل صبرى، وإيراده قطعتين لشوقى وحافظ، وضح ذلك وعقب عليه بقوله: «لست أنكر كذلك إعجابى الذى لا حد له بالشعر الوصفى فى وجدانيات إسماعيل

صبرى، وفى حماسيات البارودى، ولكنى أعود من هذا الإعجاب فأسائل نفسى: هل هذه القوافى التى ما نزال نحن مرتبطين بها منذ عهد العرب» (ثورة ٥١-٢).

ووصل به الأمر إلى أن استعار قول قاسم أمين: «لتصوير إحساس كامل، وتمثيل أثره فى صورة مطابقة للواقع، يلزم استعمال ألفاظ غير المتداولة، ألفاظ غير العتيقة البالية، يلزم احترام ألفاظ جديدة» (ثورة ٤٤).

وأطلق قولا قاطعا أنه ما يظن أن أحدا يرتاب فى وقوف الشعر العصرى فى قوافيه وأوزانه، وفى صوره ومعانيه عن مجاراة أنغام العصر وموسيقاه، بل عن مجاراة الهزات الشعرية التى تجول بالنفس المثقفة بثقافة العصر الحاضر، وأن القارئ لألوف القصائد قد يقف على أبيات بالغة الجمال، تعبر بأبلغ عبارة، عن أدق إحساس وأقواه، لكنها منثورة فى لجج مترامية انتثار الدر فى قاع البحر، لا تعثر عليها إلا بعد جهد ومشقة (ثورة ٥٢-٣).

وانتهى به هذا الموقف إلى وجوب «ثورة الأدب» للخروج من الحظيرة الضيقة، حظيرة الدواوين، ومن النطاق المحصور نطاق التعليم، لنتصل بالناس على اختلاف طبقاتهم، ولنصور لهم من نواحى الحياة ما يريد الكاتب تصويره (ثورة ٧-٨).

واعترف بأن هذا الأدب يضطرب بعوامل الثورة منذ الثورة العرابية فى مصر، ومنذ بدأ هذا الشعر القومى يحرك النفوس، ويدعوها إلى التوجه نحو النهوض بمجموع الأمة إلى مثل أعلى. والحق إنها ليست ثورة واحدة بل ثورات متصلة، شهدها القرن التاسع عشر فى شؤون الكتابة والأدب، وتصف المجهود المتصل الذى قام به أصحاب المذاهب المختلفة فى إقامة الأدب العربى الجديد (ثورة ٧).

وسمى الأدب الذى دعا إليه بالأدب القومى ، وإن كنت أرى أن الاسم الذى يليق به: الأدب الوطنى.

وصور هذا الأدب فى قوله: «لكنى أشعر.. بأن حياة الأدب، إن لم تتصل بنفس الأديب وروحه، وإن لم يظهر وحيها فى آثار حياته، كان الأدب فاترا ضعيفا، لأنه لا يصف الواقع، ولا يجلو الحقيقة، وخير ما يكفل وضوح ذاتية الأديب فى أدبه أن يتصل ما يكتب بقلبه وعقله وكل حياته، وليس ذلك بمستطاع على أكمل وجوهه إلا حينما نصف حياتنا، وحياة آبائنا، والبيئة التى أنبتتنا، والوراثة الكامنة فينا، فنصل بذلك حاضرنا بماضينا، ونصور بذلك حياتنا وحياة قومنا ووطننا، وكل ما توحيه هذه الحياة

للعقل والقلب والحس والشعور مما لا تستطيع حياة أخرى أن تلهم أو توحى» (ثورة ١٠٦ وانظر ١١١، ١١٣، ١١٦، ١٣٠).

وخشى أن تفهم الدعوة القومية فهما متحيزا، فاتسع بها حتى شملت كل ما مر بمصر من عصور وثقافات، قال: «لست أقصد من ذلك إلى قصر التجديد فى قوميتنا الأدبية على آثار الحضارة الفرعونية، فذلك محال لأنه مخالف لخلد حياة الأمم ... ثم إن مصر - أيام اليونان والرومان والعرب، وإلى عصر قريب جدا - كانت ذات أثر كبير فى سياسة العالم، وفى توجيه دفة حضارته... وإنما أريد ... الكشف عن كل عصر من عصور تاريخ مصر، وأن يعمل مؤرخونا وكتابنا وأدباؤنا ليتمثل ابن اليوم هذا الميراث المجيد، فيجمع فى ذهنه وعقله وفؤاده وتصوره وخياله ما كان لمصر فى ميادين العقل والعلم والخيال من مجد وعظمة تنقلت فى تاريخ مصر على كاهل القرون من الفراعنة إلى البطالسة (البطالمة)، وإلى مقاومة مصر استعمار روما، وإلى الحضارة الإسلامية التى ازدهرت على شاطئ النيل، وأضاءت العالم بنورها قرونا متوالية» (ثورة ١٢٩ - ٣٠).

وصور د. طه حسين هذه الدعوة فى قوله: «كان هيكل.. كما كان بعض زملائه يحاولون أن يخرجوا من هذا الركود الأدبى، وألا يقلدوا قديما، ولا يقلدوا جديدا، وأن ينشؤوا فى مصر أدبا مصريا، لا يخرج عن اللغة العربية الفصيحة السمحة، ولايتورط فى الابتذال العامى، ولا فى هذا التكلف القديم: تكلف الجناس والاستعارة وفنون البديع. وإنما - فى الوقت نفسه - لا يقلد القدماء تقليدًا حرفيا، ولا يتخذ أبا تمام ولا المتنبى ولا الجاحظ نموذجا يقيس عليه. وإنما كان المصريون - فى ذلك الطور - يحاولون أن يستكشفوا أنفسهم، وأن يعرفوا شخصياتهم، وأن يوجدوا أدبا يدل على هذه الشخصيات ، أدبا تضطرب فيه نفوسهم هى لا نفس النابغة، ولا نفس مسلم، ولا نفس أبى نواس، ولا نفس أبى تمام؛ وتضطرب فيه نفوسهم هى لا نفس فيكتور هوجو ، ولا نفس لامارتين، ولا نفس هذا الشاعر أو الكاتب الأوربى أو ذاك » (فرج ١٤ - ٥).

وذلك ما دعانى إلى تفضيل تسمية هذا الأدب بالوطنى، وهو أيضًا ما فهمه غيرى من أمثال على عبدالرازق الذى قال: «فى بكور شبابه [هيكل] عنى بدراسة التاريخ المصرى القديم، وكتب فيه سلسلة مقالات قيمة، نشرها فى «الجريدة» التى كانت لسان حزب الأمة ، ولعل فى ذلك ما يشير إلى اتجاهه ومذهبه يومئذ فى السياسة فهو يتجه نحو الشعور المصرى خالصا لمصر والمصريين، لا يشوبه انحراف إلى اليمين ولا إلى

اليسار، لا شك أن ذلك قد بقى المذهب السياسى لهيكل، لم يتغير مطلقا، بل زادته الحوادث إيمانا وتثبيتا» (فرج ٤٢ - ٣).

وقال محمود تيمور: «تجلت [عند هيكل] شخصيات شعبية، أريد بها جميعا أن تحقق غرضا هفت إليه نفوس الداعين إلى تجديد الأدب فى مستهل القرن الذى نعيش فيه، ذلك أن الغرض هو إنشاء أدب مصرى السمات، مصرى الأحداث، مصرى الروح، يتأكد به طابع المصرية فى التعبير والتصوير» (فرج ٣٢).

ومن ثم أجمع النقاد على أن هيكل كان يدعو إلى ذاتية الأدب، كما يتجلى خاصة على صفحات كتاب «ثورة الأدب» (١١، ١٦، ١٨، ٣٠، ٣٦ - ٤٢، ٥٢ - ٤، ٦٥).

هذا الثائر المجدد كان يرى أن كل عصر يتصل بما قبله اتصال البنوة بالأبوة، والوارث بالموروث، ولن يتحلل الابن من آثار آبائه وإن هو حاول ، ولن يستطيع أن يكون صورة مضبوطة منهم، وإن حاول ذلك (ثورة ٤٧).

فالخصومة بين القديم والحديث كالخصومة بين الوارث والمورث غير ممكنة، لأن الحديث ينطوى على شىء من القديم بل على أكثره، والقديم لا يمكن أن يتصل بقاؤه إذا هو لم يتصل بالحديث، ولم ينتشر فى أرجائه.. (ثورة ١٣٥).

وإذن فتغير طرائق البحث - تبعا لما حدث فى أوربا، واتباعا لديكارت ومن جاء بعده من الكتاب والفلاسفة - ليس معناه إهدار تراثنا بوصفنا مصريين وشرقيين ومسلمين، والانتقال إلى تقليد الغرب فى أدبه القومى كتقليدنا إياه فى لباسه وفى طعامه (ثورة ١٣٨).

وأعلن أن المجددين واجههم السؤال: ماذا عسانا نصنع؟ وإلى أى أدب، وإلى أية فلسفة - فى الماضى القريب والماضى البعيد - يجب أن ننتسب، إذا أردنا بأدبنا أن يكون مظهرا لحضارة ما؟ فلم يتردد أكثرهم فى الإجابة بأن ماضيهم هو الأب الطبيعى لحضارتهم ولأدبهم . أما القلائل الذين قالوا بالأخذ بالحضارة الغربية فى كل مظاهرها وصورها - على نحو ما فعل الأتراك - فلم يجدوا لأقوالهم إلا صدى ضعيفا (ثورة ١٣ - ٦، وانظر ١٢٢ - ٦).

وحكم على هؤلاء الذين أرادوا قطع الصلة بين حاضر اللغة وماضيها بالإخفاق (ثورة ٤٨).

وأوجب عليهم الاتصال بالتراث وبخاصة الدين. فلا يمكن أن يؤدى الأدب رسالته ، إذا أهمل هذا الجانب القوى من جوانب حياة الشرق العربى، وإذا لم يحاول أن يصل ماضى هذا الشرق بمستقبله، الصلة التى تستقيم مع التفكير الحديث (ثورة ١٤ - ٥).

وذكر أن عوامل السياسة التى حاولت صرف التيار السياسى فى نواح معينة قد حاولت مثل هذه المحاولة فى شأن الأدب، وبذلت جهودا عاقت سير الحركة الأدبية، وحاولت - من غير نجاح كبير - إفساد اتجاهها، وضرب مثالا على ذلك ما كان من سعى متصل لجعل اللغة الدارجة لغة الكتابة، وما كان ... محاولة قطع كل نسب بين الحاضر والماضى، ومن إظهار هذا الماضى فى صورة زرية غير جديرة بالاعتداد بها أو باستلهامها (ثورة ١٥).

وعلى الرغم أنه أطلق صيحة جهيرة تدعو إلى الاطلاع على جميع الفنون الجديدة فى الآداب الغربية دعا أيضًا إلى ألا يصرفنا ذلك عن الأدب العربى، قديمه وحديثه. فنحن فى حاجة إلى التضلع من هذا الأدب، لأنه هو الأساس الذى نبنى عليه، ونريد أن نبلغ به الكمال (ثورة ٣٣).

ويتجلى من هذا أنه كان يرى التراث الأساسى الذى نبنى عليه، فإذا اتصل القديم والحديث وتضامنا، نشأت عن ذلك حيوية قوية، وروح معنوية نشيطة هى التى تقوم أساسا لكل حضارة من الحضارات، وبدونها تتداعى الحضارة وتنهار ويضطر أهلها إلى استعارة حضارة غيرهم والعيش فى كنفها (ثورة ١٣٥).

وكان يراه مصدر إلهام أصدق الإلهام لأهله ، ووحى فى التاريخ والأدب أسمى ما يكون الوحى، ويرى الإلهام يكون - دون ريب - أسنى كلما كان أوثق اتصالا بوطن الإنسان وقومه، والأدب الذى يصدر عن ذلك الإلهام يكون - لذلك - أروع وأقوى، إذ يكون أدبا قوميا صادقا (ثورة ١٠٧).

وتأمل المفكرون هذا الموقف شبه المتناقض لهيكل، فهداهم التأمل إلى عدة عوامل تفسره.

العامل الأول أسرته، فقد ذكر محمد غلاب أنه ولد من أسرة تزعم لنفسها أنها تنتمى إلى السلالة المحمدية، وكانت نقابة الأشراف فى يد السيد محمود من أعضائها الأدنين إلى هيكل، وذكر حافظ محمود أن جده الأكبر الشيخ عبدالسلام هيكل كان من الرجال الصالحين صلاحا جعل أهل الناحية يعتقدون أنه من الأقطاب، ودرس أبوه علوم الدين فى الجامع الأحمدى بطنطا. وكان مفتونا بالكتب ، مغرما بالاطلاع وعندما التحق بمدرسة الحقوق بالقاهرة، انضم إلى سكن ذوى قرباه الذين كانوا يدرسون فى الأزهر، ويسكنون بالقرب منه، فكانت هذه فرصة أتاحت له النظر فى بعض الكتب الدينية، والاستماع إلى بعض المحاضرات فى تاريخ الأدب والدين. فرج (٥٣ - ٤، ٩٣ - ٤).

العامل الثانى حب التراث، وقد صور هو نفسه ذلك فى قوله: «كنت مشغوفًا بقراءة الأدب العربى القديم، وما أزال، ويرجع هذا الشغف إلى أيام كنت طالبا بالقسم الثانوى، وحين كنت أتلقى الحقوق بمدرسة الحقوق الخديوية، وقد طالعت يومئذ الكثير من أمهات كتب هذا الأدب، وحفظت عن ظهر قلب ما حبّب إلى نفسى مدخله» (ثورة ٢١٢).

وكان يرى فى الأدب القديم جمالا عبر عنه فى قوله: «لعل من الناس من يرى أن رحيق الحياة عند السلف أشهى وأعذب من رحيق هذه الحياة التى نعيشها، ومن يرى - لذلك - أن مظاهر هذا الرحيق من فن السلف وأدبهم كانت أطيب وأهنأ. ولست أخالف هؤلاء. وأنا أشعر فى كثير من الأحيان شعورهم. وأجد فى كثير من الأدب القديم جمالا ولذة، وأجد فيه سذاجة تجذب إليه، وتحبب النفس فيه، بل إن من آثار الفن والأدب القديم ما انتهى إلى الخلود، وما سيظل موضع تقديس العصور والقرون المقبلة جميعا، وإن فى «قفا نبك» من صور الجمال فى بعض المواضع ما لا سبيل إلى نسيانه» (ثورة ٢٢).

وثالث العوامل أن الحضارة الغربية التى كان يعجب بها كل الإعجاب، رأى أنها قامت أول قيامها على بعث فلسفة اليونان وتشريع الرومان، واتجاه الأدب الوجهة التى ترسمها هذه الفلسفة وهذا التشريع، وما أحاط بهما فى عصورهما من صور الفن والأدب (ثورة ١٢).

ومن حق هيكل الثائر المجدد ألا أقف عند هذا الحد، وإلا ما كان ثائرًا ولامجددا، وأن أسايره قليلا لنتبين جدارته بما وصف به من تجديد. ويكفينا أن نقف على إلحاحه على ضرورة الاطلاع الواسع على الآداب الغربية. قال - فيما قال - : «ما نحسب أحدا إلا يشعر بالحاجة إلى هذا الاطلاع... فإذا اطلع إنسان، استطاع أن يؤدى رسالة الأدب على وجه صحيح، وكان لذلك أديبا أصيلا، أما الذين يقفون عند الاطلاع على الأدب العربى، فلن يستطيعوا مجاراة هذا العصر...» (ثورة ٣٣).

المراجع:

- فرج، نبيل: محمد حسين هيكل فى عيون معاصريه - مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة - ١٩٩٦.

- هيكل، محمد حسين: ثورة الأدب - الهيئة العامة لقصور الثقافة - ديسمبر ١٩٩٦.